بزيادة عليه ، و« الخسارة » أى أن رأس المال قد قلَّ ، فلماذا قتل أخاه وكان أخوه الوحيد وكان يأنس به فى الدنيا ؟ إن هذا حدث من حكاية البنت . فقد أراد أن يأخذ أخته الحلوة ويترك الأخرى ، ولما قدّما القربان ولم يقبل منه تصاعد الخلاف وقتل أخاه ، إذن فَقَد رأس المال ، بينما كان يريد أن يكسب « فأصبح من الخاسرين » .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

ونعرف السوءة وهى ما تَتَكرّهه النفس . وهى من « ساء ، يسوء ، سوءا » أى يتكره ، وسمينا « العَورة » سَوْءَة ؛ لأنها تتكره .

« فبعث الله غُراباً يبحث فى الأرض » . هل بعثه الله حتى يُرى قابيل كيف يوارى سوءة هابيل ، أم أن الغراب هو الذى سيقول له ؟ كلا الأمرين متساو ؛ لأن ربنا هو الذى بعث ، فإن كنت ستنظر للوسيلة القريبة فيكون الغُراب ، وإن كنت ستنظر لوسيلة الباعث يكون هو الله ؛ فالمسألة كلها واصلة لله ، وأنت حين تنسب الأسباب تجدها كلها من الله .

« قال يا ويلتى » . ساعة تسمع كلمة « يا ويلتى » يكون لها معنيان فى الاستعمال : المعنى الأول للويل : هو الهلاك ، وإن أردنا المبالغة فى الهلاك نأتى بتاء التأنيث ونقول : ويلة ، ولذلك عندما نحب أن نبالغ فى وصف عالم نقول : فلان عالم وفلان علاّم وفلان عَلاّمة ، وتأتى التاء هنا لتؤكد المعنى ، إذن فالويل : الهلاك ، و« ويلة » تعنى أيضا الهلاك ، وماذا تعنى « يا ويلتى » ؟

إننا نعرف أن النداء يكون بـ « يا » فكيف نُنادى الويل والهلاك ؟ وهل يُنادىٰ غير العاقل ؟ نعم ، يُنادىٰ ؛ لأنه مادام « الويل » و« الويلة » : الهلاك . كأنك تقول : أنا لم أعد أطيق ما أنا فيه من الهم والغم ، ولا يُخلصنى فيه إلا الهلاك ، يا هلاكى تعال فهذا وقتك ! إذن فقوله : « يا ويلتى » يعنى يا هلاك تعال ، والمتنبى فطن لهذه المسألة وقال :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا
وحسب المنايا أن يكنّ أمانيا

فأى داء هذا الذى تقول فيه : يارب أرحنى بالموت !! إذن فالذى يراه من ينادى الهلاك هو أكثر من الموت . المعنى الأول : أنك تنادى الهلاك أن يحضر ؛ ولذلك يقول الحق :

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الكهف)

إنهم يتمنّون الموت ؛ وكذلك قال قابيل : « يا ويلتى » .

وهل تأتيه الويلة عندما يطلبها ؟ لا ، فقد انتهت المسألة وصار قاتلاً لأخيه .

والمعنى الثانى: أن تأتى « ياويلتنا » بمعنى التعجب من أمر لا تعطيه الأسباب، وهناك فرق بين عطاء الأسباب وبين عطاء المُسبِّب . فلو ظل عطاء الأسباب هو المُتحكّم فى نواميس الكون ، لكان معنى هذا أن الحق سبحانه قد زاول سلطانه فى مُلْكه مرة واحدة ، وكأنه خلق الأسباب والنواميس وتركها تتحكم ونقول : لا . فبطلاقة القدرة خلقت الأسباب ، وهى تأتى لتثبيت ذاتية القدرة وقيّوميّتها ، فيقول الحق حينما يشاء : توقفى يا أسباب .

إذن فهناك أسباب وهناك مُسبِّب . والأمر العجيب لا تعطيه الأسباب . وحين لا يعطى السبب يتعجب الإنسان ، ولذلك يَرُدّ الأمر إلى الأصل الذى لا يتعجب منه . وها هو ذا سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما جاءه الضيوف وقدم لهم الطعام

ورأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم ونفر منهم ولم يأنس إليهم وأوجس منهم خيفة . ويقول الحق عن هذا الموقف :

﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

وقال الحق أيضاً فى هذا الموقف :

﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ ﴾

(سورة هود)

وهنا قالت امرأة سيدنا إبراهيم :

﴿ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة هود)

أى أن الأسباب لا تعطى ، وردّت إلى المُسبّب . (أتعجبين من أمر الله) ؟ كان لك أن تتعجبى من الأسباب لأنها تعطلت ، أما حين تصل الأسباب إلى الله ، فلا عجب .

وقال سيدنا زكريا عليه السلام مثل قولها ؛ فحين رأى السيدة مريم وهو الذى كفلها ، وكان يجىء لها بمطلوبات مقومات حياتها ، وفُوجىء بأن عندها رزقا من طعام وفاكهة . فسألها :

﴿ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾

(من الآية ٣٧ سورة آل عمران)

كيف يقول لها ذلك ؟ لا بد أنه رأى شيئا عندها لم يأتِ هُو به ، وهنا ردّت عجبه لتنبهه بالحقيقة الخالدة :

﴿ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة آل عمران)

ويشاء الحق أن تقولها سيدتنا مريم وهى صغيرة السن ، وكأنها تقول ذلك كتمهيد ؛ لأنها ـ كما قلنا سابقا ـ ستتعرض لمسألة لا يمكن أن يحلها إلا المُسبِّب ، فسوف تلدِ بدون رُجولة ، وهى مسألة عجيبة ، لذلك كان لا بد أن تفهم هى وأن تنطق :

﴿ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة آل عمران)

وكأن الحق ينبئها ضمناً بأن عليها أن تتذكَّر أنها هى التى قالت هذه الكلمة ؛ لأن المستقبل سوف يأتى لك بأحداث تحتاج إلى تذكُر هذا القول . وهى التى تُذكِّر سيدنا زكريا عليه السلام بهذه الحقيقة . ولنر دِقّة إشارة القرآن إلى الموقع الذى ذكرت له مريم فيه تلك الحقيقة :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة آل عمران)

كأن ساعة سمع هذه المسألة قرّر أن يدعو الله بأمنيته فى المحراب نفسه . وهل كان سيدنا زكريا لا يعرف تلك الحقيقة ؟ كان يعرفها ، ولكن هناك فرق بين حكم يكون فى حاشية الشعور ، وبين حكم يكون فى بؤرة الشعور .

وقول مريم لزكريا : « هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » جعل القضية تنتقل من حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور .

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة آل عمران)

لماذا لم يدعُ ربَّه من البداية ؟ . كان سيدنا زكريا سائراً مع الأسباب ورتابة الأسباب قد تذهل وتُشغل عن المُسبِّب ، وعندما سمع من مريم : « يرزق من يشاء بغير حساب » أراد أن يدخل من هذا الباب ، فدعا ربه ؛ وبشّره الحق بأنه سيأتى له بذرِّية ، وتعجّب زكريا مرّة أخرى من هذا الأمر شارحاً حالته :

﴿ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة آل عمران)

ومادمت يا زكريا قد دعوت الله أن يهبك الذُرّية وقفزت قضية رزق الله لمن يشاء من حاشية شعورك إلى بؤرة شعورك . فقد جاء أمر الله :

﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ ﴾

(من الآية ٩ سورة مريم)

إذن فلا بحث فى الأسباب والمسببات . فهى إرادة الله . ويوضح الحق حيثيّات « إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » ويأتيك بالولد ؛ فيقول سبحانه :

﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾

(من الآية ٩ سورة مريم)

وكل هذه مقدمات من مريم ومن سيدنا زكريا الكفيل لها ؛ ذلك أن سيدنا زكريا سوف يكون عنصراً شاهداً عندما يأتيها الولد من غير أب وتلد ، وهو كفيل لها ، وهو الذى سيتعرض لهذا الأمر .

ولماذا كل هذا التمهيد ؟ ؛ لأن خرق الأسباب وخرق النواميس وخرق السُنن إنما حدث فى أمور أخرى غير العِرْض ، لكن عند مريم سيكون ذلك فى العِرض وهو أقدس شيء بالنسبة للمرأة ، لذلك لابد من كل هذه التمهيدات . إذن ، هو أمر عجيب لكنه ليس بعجيب على الله .

وها هوذا قابيل يقول : « يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب » كأن عملية الغراب أظهرت لقابيل أنه لم يعرف شيئاً يفعله الطائر الذى أمامه ، فها هى ذى مسألة يفعلها غراب ولا تفعلها أنت يا قابيل ، لقد امتلكت قدرة لتقتل بها أخاك ، لكنك عاجز أن تفعل مثل هذا الغراب . فقابيل لا يقولها ـ إذن ـ إلا بعد أن مرّ بمعنى نفسىّ شديد قاسٍ على وجدانه .

لقد قدر على أخيه وقتله وهو لم يعرف كيف يواريه ، بينما عرف الغراب كيف يوارى جثة غراب آخر . وهكذا أصبح قابيل من النادمين « فأصبح من النادمين » .

إن علينا أن ننتبه إلى الفارق بين « نَدَمٍ » و« نَدَمٍ » . وعلى سبيل المثال : هناك إنسان قد جرؤ على حدود الله وشرب الخمر بالنقود التى كان عليه أن يشترى بها طعام

الأسرة . وعندما عاد إلى منزله ووجد أهله فى انتظار الطعام ، ندم لأنه شرب الخمر ، فهل كان ندم الرجل على أنه عصى الله ، أو ندم لأنه لم يشتر الطعام لأهله ؟ . لقد ندم على عدم شراء الطعام وذلك ندم مرفوض ، ليس من التوبة .

وقد يكون هذا الشارب للخمر قد ارتدى أفخر ثيابه وخرج فشرب الخمر ووقع على الأرض ، وهنا ندم لأن شرب الخمر أوصله إلى هذا الحال ؛ فهل ندم لأنه عصى ربه ؟ . أو ندم لأنه صار هُزْأة بين الناس ؟ . وكذلك كان ندم قابيل ، لقد ندم على خيبته ؛ لأنه لم يعرف ما عرفه الغراب .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

نجد الحق قال:إنه قد كتب على بنى إسرائيل ما جاء بهذه الآية من قانون واضح ؛ لأن معنى كلمة « من أجل » هو « بسبب » ؛ و« أَجْل » مِن أَجَل شرا عليهم يأْجُله »،أى جنى جناية ؛ أى من جريرة ذلك .

أو من هذه الجناية شرعنا هذا التشريع : « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً » . إذن فساعة تسمع « من أجل » فاعرف أنها تعنى « بسبب ذلك » أو « بوقوع ذلك » أو « بجريرة ذلك » أو « بهذه الجناية كان ذلك » .

ولكن هل هذا الكَتْب خاص ببنى إسرائيل ؟ . بعض العلماء قال:إن ابنى آدم ليس ابنى آدم مباشرة ؛ ولكنهما من ذُرّية آدم وهما من بنى إسرائيل . ونَردّ : من هو إسرائيل أولاً الذى نُسب إليه أبناء إسرائيل ؟. إنه يعقوب بن إسحاق ؛ بن إبراهيم ، وإبراهيم يصل إلى نوح بأحد عشر أباً ويصل نوح إلى شيث . وبعد ذلك إلى آدم ؛ **فهل كانت كل هذه السلسلة لا تعرف كيف تدفن الميت إلى أن جاء بنو إسرائيل ؟**

طبعاً لا ؛ ومادام الحق أوضح أنه سبحانه قد بعث غُراباً يبحث فى الأرض ليُرِيَه كيف يُوارى سَوْءَة أخيه ، فهذا دليل على أن هابيل هو أول إنسان تَمَّ دفنه ، ومن غير المقبول ـ إذن ـ أن نقول:إن الإنسان لم يعرف كيف يوارى جثمان الميّت إلى أن وصلت البشرّية إلى زمن بنى إسرائيل ، وأنهم هم الذين علموا البشرية ذلك !

ولماذا جاء الحق هنا ببنى إسرائيل ؟. سبب ذلك أن بنى إسرائيل اجترأوا لا على قتل النفس فقط بل اجترأوا على قتل النفس الهادية ، وهى النفس التى تحمل رسالة النّبوة ، ولذلك كان التخصيص ، فقد قتلوا أنبياءهم الذين حملوا لهم المنهج التطبيقى ؛ لأن الأنبياء يأتون كنماذج تطبيقية للمناهج حتى يلفتوا الناس إلى حقيقة تطبيق منهج الله . الأنبياء ـ إذن ـ لا يأتون بشرع جديد ، ولكنهم يسيرون على شرع من قبلهم . فلماذا قتل بنو إسرائيل بعضاً من الأنبياء ؟ لقد تولّدت لدى بنى إسرائيل حفيظة ضد هؤلاء الأنبياء .

ونعلم أن الإنسان الخيّر حين يصنع الخير ويراه الشرّير الذى لا يقدر على صناعة الخير فتتولد فى نفس الشرّير حفيظة وحقد وغضب على فاعل الخير . ففاعل الخير كلما فعل خيراً إنما يلدغ الشرّير ، ولذلك يحاول الشرّير أن يُزيح فاعل الخير من أمامه . وكان الأنبياء هم القدوة السلوكية ، وقد قال الحق عن بنى إسرائيل :

﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ ﴾

(من الآية ٩١ سورة البقرة)

وجاء الحق هنا بـ «من قبل» هذه لحكمة ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى عداءٍ مع اليهود ، وقد تَهبّ عليهم الخواطر الشرّيرة فيحاولون قتل النّبى .

وقد حاولوا ذلك . مثلما أرادوا أن يلقوا عليه حجراً ، ودسُّوا له السّم ، ولذلك قال الله : « من قبل » أى إن قدرتكم على قتل الأنبياء كانت فى الماضى ؛ أما مع محمد المصطفى فلن تُمكّنُوا منه .

ويقول سبحانه : « من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً » . وهذا توضيح لإرادة الحق فى تأسيس الوحدة الإيمانية ليجعل من المجتمع الإيمانى رابطة يوضحها قول رسول الله فيما رواه أبو موسى الأشعرى عنه :

(المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) .

وإياك أن تنظر إلى مجترىء على غيرك ، بالباطل ، وتقف مكتوف اليدين ؛ لأن الوحدة الإيمانية تجعل المؤمنين جميعاً كالجسدالواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسّهر والحُمى . فإن قَتل إنسان إنساناً آخر ووقف المجتمع الإيمانى موقف العاجز . فهذا إفسادٌ فى الأرض ، ولذلك يجب أن يقابل المجتمع مثل هذا الفعل لا على أساس أنه قتل نفسا واحدة ، بل كأنه قتلٌ للناس جميعاً ما لم يكن قتل النفس لقصاص أو إفساد فى الأرض .

ويكمل الحق سبحانه الشق الثانى من تلك القضية الإيمانية : « ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » ، وهذه هى الوحدة الإيمانية ، فمن يعتدى على نفس واحدة بريئة ، كمن يعتدى على كل الناس ، والذى يسعف إنساناً فى مهلكة كأنه أنقذ الناس جميعاً .

وفى التوقيع التكليفى يكون التطبيق العملى لتلك القاعدة ، فالذى يقتل بريئاً عليه لعنة الله وغضبه ويعذبه الله ، وكأنه قتل الناس أجمعين ، وإن نظرنا إليها من ناحية الجزاء فالجزاء واحد .

« ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا » . وسبحانه وتعالى يريد ألا يستقبل المجتمع الإيمانى مجترئاً بباطل على حق إلا أن يقف كل المجتمع أمامه ، فلا يقف

المعتدَى عليه بمفرده ؛ لأن الذى يُجرِّىء أصحاب الشّر هو أن يقول بعض الناس كلمة « وأنا مَالِى » .

و« الأنا مالية » هى التى تُجرِّىء أصحاب الشرور ، ولذلك اقرأوا قصة الثيران الثلاثة : الثور الأسود والثور الأحمر والثور الأبيض ، فقد احتال أسد على الثورين الأحمر والأسود ، فسمحا له بأكل الثور الأبيض . واحتال الأسد على الثور الأسود فسمح الثور الأسود للأسد بأكل الثور الأحمر ؛ وجاء الدور على الثور الأسود ؛ فقال للأسد :

ـ أكِلتُ يوم أُكِلَ الثور الأبيض . كأن الثور التفت إلى أن « أنا ماليته » جعلته ينال مصرعه . لكن لو كان الثيران الثلاثة اجتمعوا على الأسد لقتلوه .

وهاهوذا الحديث النبوى الشريف الذى يمثل القائم على حدود الله والواقع فيها :

عن النعمان بن بشير رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها وكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا . فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نجَوْا ونجوا جميعاً »(١) .

كذلك مثل القائم على حدود الله ومثل الواقع فيها ، فكأن الحق سبحانه وتعالى يقول لنا : لا تنظر إلى أن نفساً قتلت نفساً بغير حق ، ولكن انظر إليها كأن القاتل قتل الناس جميعاً ؛ لأن الناس جميعاً متساوون فى حق الحياة . ومادام القاتل قد اجترأ على واحد فمن الممكن أن يجترىء على الباقين .

أو أن يكون فعله أُسْوَة لغيره ، ومادام قد اسْتَن مثل هذه السُّنة ، سنجد كل من يغضب من آخر يقتله ، وتظل السلسلة من القتلة والقتلى تتوالى .

(١) رواه البخارى فى الشركة والشهادات ، ورواه الترمذى فى الفتن ، ورواه أحمد فى مسنده .

والحديث النبوى يقول :

« من سن فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء » .

إنه الاحتياط والدقة والقيد : « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض » ولو كان التشريع تشريعاً بشرياً فمرّت عليه هذه المسألة يمكن أن يستدركها بعد ذلك بشرح أو تعديل ، ولكن المُشرّع الأعلى لا يستدرك .

« من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض » . فكأن من قتل نفساً بنفس أو بفساد فى الأرض ، لا يقال عليه : إنه قتل الناس جميعاً ، بل أحيا الناس جميعاً ؛ لأن التجريم لأى فعل يعنى مجىء النص الموضح أن هذا الفعل جريمة ، وبعد ذلك نضع لهذه الجريمة عقوبة . ولا يمكن أن تأتى لواحد ارتكب فعلاً وتقول له : أنا أؤاخذك به وأعاقبك عليه بغير أن يوجَد نص بتجريم هذا الفعل .

وهناك توجد قاعدة شرعية قانونية تقول : « لا تجريم إلاّ بنص ولا عُقوبة إلاّ بتجريم » . اى أننا نُرتّب العقوبة على الجريمة ، أو ساعة يُجرّم فعل يُذكر بجانب التجريم العقوبة ، فهل القصد هو عقاب مُرتكب الجُرم ؟ لا إنما القصد هو تفظيع العقاب حتى يراه كل إنسان قبل أن يرتكب الجريمة ، والهدف هو منع الجريمة ، ولذلك تجد الحكمة البشرية القائلة : « القتل أنفى للقتل » ، وبطبيعة الحال لا يمكن أن ترقى تلك الحكمة إلى قول الحق :

﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾

(من الآية ١٧٩ سورة البقرة)

لأننا يمكن أن نتساءل : أىّ قتل أنفى للقتل ؟ . وسنجد أن المقصود بالحكمة ليس القتل الابتدائى ولكن قتل الاقتصاص . وهكذا نجد الأسلوب البشرى قد فاتته اللمحة الفعّالة فى منع القتل الموجودة فى قوله الحق : « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » . وكلمة « أحياها » لها أكثر من معنى . وبالتحديد لها معنيان : المعنى الأول : أنه أبقى فيها

الروح التى تحرك المادة ، والمعنى الثانى : إحياء الروح الإيمانية ، مصداقاً لقول الحق :

﴿ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

ولنا أن نلتفت إلى أن الحق وضع الفساد فى الأرض مُستحقاً لعقوبة القتل . والفساد هو إخراج الصالح عن صلاحيته ، والمطلوب منا إيمانياً أن الأمر الصالح فى ذاته علينا أن نُبقيه صالحاً ، فإن استطعنا أن نزيده صلاحاً فلنفعل وإن لم نستطع فلنتركه على صلاحه .

ولماذا جاء الحق بعقاب للفساد فى الأرض ؟ . مدلول الأرض : أنها المنطقة التى استخلف الحق فيها البشر ، وساعة يقول الحق : « أو فساد فى الأرض » فمعنى ذلك أن كل فساد عائد على كل مظروف فى الأرض . وأول مظروف فى الأرض أو السيد لها هو الإنسان . وعندما نفسد فى الإنسان ، فهذا معناه قتل الإنسان .

إذن لا بد أن يكون الفساد فى أشياء أخرى : هى الأكوان أو الأجناس الأخرى ؛ الحيوانات والنباتات والجمادات . والفساد فى هذه الكائنات يكون بإخراجها عن مستحوزها ملكيةً ، كأن تسطو جماعة على بضاعة إنسان آخر ، أو أن يأخذ واحد ثمار زرع لأحد ، أو أن يأخذ بعضاً من إنتاج منجم منجنيز أو حديد أو خلافه .

إن الفساد نوعان : فساد فى الأرض وهو متعلق بالمظروف فى الأرض ، والمظروف فى الأرض سيد وهو الإنسان ، والفساد فيه قتله أو أن تُسبب له اختلالاً فى أمنه النفسى كالقلق والاضطراب والخوف . ونلحظ أن الحق سبحانه قد امْتَنّ على قريش بأنه أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف .

إذن فمن الفساد تفزيع الناس وترويعهم وهو قسمان : قسم تُفَزِّع فيه مَن لك عنده ثأر أو بينك وبينه ضغينة أو بُغض ، أو أن تُفَزِّع قوماً لا علاقة بينك وبينهم ولم يصنعوا معك شيئاً . فمن يعتدى على إنسان بينه وبينه مشكلة أو عداوة أو بغضاء ، لا نُسمّيه خارجاً على الشريعة ؛ بأخذ حقه ، ولكنه لا يستوفى فى حقه بيده بل لا بد

من حاكم يقوم بذلك كى ينضبط الأمر ويستقيم ، إنه يخرج على الشريعة فقط فى حالة العُدوان .

أما الذى يذهب للاعتداء على الناس ولم يكن بينه وبينهم عداء ؛ فهذه هى الحرابة . كأن يخرج ليقطع الطريق على الناس ويخيف كل من يلقاه ويُسبِّب له القلق والرّعب والخوف على نفسه وماله ، والمال قد يكون من جنس الحيوان أو جنس النبات أو جنس الجماد . وذلك ما يسميه الشرع حرابة وستأتى لها آية مخصوصة .

إذن . فالفساد فى الأرض معناه إخراج صالح عن صلاحه مظروف فى الأرض ، والمظروف فى الأرض سيده الإنسان ، والإفساد فيه إما بقتله أو إهاجته وإشاعة الرّعب فيه ، وإما بشىء مملوك له من الأشياء التى دونه فى الجنسية مثل الزروع أو النباتات أو الحيوانات . فكأن الفساد فى الأرض - أيضاً - يؤهل لقتل النفس :

« منْ قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً » . أى أن القتل بغير إفساد فى الأرض ؛ هو القتل الذى يستحق العقاب . أما القتل بإفساد فى الأرض فذلك أمر آخر ؛ لأن هناك فارقا بين أن يُقتل قِصاصاً أو أن يقتل حدّاً من المُشرّع ؛ وحتى عفو صاحب الدم عن القاتل فى الحرابة وقطع الطريق لا يشفع فى ذلك ولا يسقط الحد عن الذى فعل ذلك ؛ لأنها جريمة ضد المجتمع كله .

ويتابع سبحانه : « ولقد جاءتهم رُسلنا بالبيّنات ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك فى الأرض لمسرفون » والمُسرف هو المُتجاوز للحّد ، وهو من لا يأخذ قدر تكوينه وموقعه فى الوجود ، بل يحاول أن يخرج عن قدر إمكاناته فى الوجود .

مثال ذلك : رجل حاول أن يسطو على حق غيره فى الوجود ؛ متخطياً منزلة الاعتدال فلا يأخذ حقه فقط . مثل قطاع الطريق أو النهابين يأخذون عرق غيرهم وتعودوا أن يعيشوا كذلك وبراحة . والمصيبة لا تكون فى قاطع الطريق وحده ، ولكن تتعداه إلى المجتمع . فيقال : إن فلاناً يجلس فى منزله براحة وتكفيه ساعة بالليل ليسرق الناس .

إن الأمر لا يقف عند حدود ذلك الإنسان إنما يتعدّاه إلى غيره . ويحيا من

يملك مالاً فى رُعب ، وعندما يُفجَع فى زائد ماله ، يفقد الرغبة فى أن يتحرك فى الحياة حركة زائدة تُنتج فائضاً لأنه لا يشعر بالأمن والأمان . وعندئذ يفقد العاجز عن الحركة فى المجتمع السند والعون من الذى كان يتحرك حركةً أوسع . إذن من رحمة الله أنه فتح أمام البشر أبواب الآمال فى التملُّك ، مادام السعى إلى ذلك يتم بطرق مشروعة .

ونضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ : الرجل المُرابى الذى يُقرض مُحتاجاً مائة جنيه ، كيف يطلب المرابى زيادة مِمّن لا يجد شيئا يقيم به حياته ؟ إنه بذلك يكون قد أعطى مَن وجد أزيد مما أخذ منه مع فقره وعجْزه . إن ذلك هو الإسراف عينه .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾

أول شىء فى الحرب هو الاستيلاء ؛ فمعنى أن يحارب قوم قوماً غيرهم أى يرغبون فى الاستيلاء على خيرات أو ممتلكات الطرف الآخر . فكيف يحارب قومٌ اللّهَ وهو غيب ؟. وأول حرب للّه هى محاولة الاستيلاء على سلطانه ، وهو تشريعه . فإن حاولت أيها الإنسان أن تشرع أنت على غير منهج الله فأنت تريد أن تستولى على حق الله فى التشريع . وهذه أول حرب لله .

والذين يحاربون الله أهُمُ الذين يريدون أن يستولوا على ملك الله ؟ لا ؛ لأن يد الله فى مُلكه أزلا ، وستبقى أبدًا وسبحانه لن يسلّمه لأحد من عباده . فعلى ماذا

ـ إذن ـ يريدون الاستيلاء ؟. إنهم يريدون تزييف تشريعات الله ، بينما سبحانه هو المُشرّع وحده . والتشريع ـ كما قلنا ـ هو قانون صيانة للصّنعة . إذن لماذا لا نترك خالق الإنسان ليضع القواعد التى تصون البشر ؛ لذلك فأول افتيات يفعله الناس أنهم يُشرّعون لأنفسهم ؛ لأن قانون صيانة الإنسان يضعه خالق الإنسان ، فإذا ما جاء شخص وأراد أن يضع للإنسان ـ الذى هو منه ـ قانون صيانة نقول له : إنك تستولى على حق الله .

وكيف يحاربون الرسول ؟.

نعرف أن الرسول صلى الله عليه وسلم له وضعان ؛ فالله غيب ؛ لكن الرسول كان مشهداً من مشاهدنا فى يوم من الأيام ، وقد حورب بالسيف ، وعندما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى أصبحت حربه كحرب الله ، فنأخذ سلطته فى التشريع ، وهى السلطة الثانية ونقول لها : نحن سنشرع لأنفسنا ولا ضرورة لهذا الرسول ، أو أن يقول نظام ما : سنأخذ من كلام الله فقط وذلك ما ينتشر فى بعض البلدان . ونقول لكل واحد من هؤلاء : أتؤدى الصلاة ؟. فيقول : نعم . نسأله : كم ركعة صليت المغرب ؟. فيجيب ثلاث ركعات . نسأله : من اين أتيت بذلك ؟. ومن أين عرفت أن صلاة المغرب ثلاث ركعات وهى لم تذكر فى القرآن الكريم ؟. هنا سيصمت .

ونسأله : كيف تخرج الزكاة وبأى حساب تحسبها ؟ فيقول : أخرج الزكاة بقدر اثنين ونصف بالمائة فى النقدين والتجارة مثلا .

نقول له : كيف ـ إذن ـ عرفت ذلك ؟. وأيضا كيف عرفت الحج ؟. إذن فللرسول صلى الله عليه وسلم مهمة ، وحرب النبى تكون فى ترك قول أو فعل أو تقرير له عليه الصلاة والسلام .

ومثال ذلك هؤلاء الذين يقولون : إن أحاديث رسول الله كثيرة . ونقول لهم : كانت مدة رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة وعشرين عاماً وكل كلامه حديث ، فكل كلمة خرجت من فمه حديث شريف ، ولو كنا سنحسب الكلام فقط لكان مجلدات لا يمكن حصرها ، وكل كلام سمعهُ وأقرّه من غيره حديث ، وكل

فعل فعله غيره أمامه وأقرّه ولم يعترض عليه حديث ، فكم تكون أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ . وكيف يستكثر بعض الناس قدراً من الأحاديث التى وصلتنا بعد قدر هائل من التنقية البالغة ؟ ؛ لأنهم قالوا : لأن نبعد عن رسول الله ما قاله خير من أن ندخل على رسول الله ما لم يفعله . إنهم يدعون أن هذا حفظ للإسلام ولكن فاتهم أن الله حافظ دينه ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وضع القواعد لغربلة الأحاديث فقال :

« من كذب على مُتعمداً فليتبوّأ مقعده من النار »[1] .

وها هوذا البخارى ينقل عن المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم والذين قابلوه ، وسيدنا مُسلم يعتبر المعاصرة كافية لأنّها مظنّة المقابلة وتحرى كل منهما الدقة الفائقة . وأى شخص كان به خدشة سلوكية لا يؤخذ بقوله ، ولذلك عندما حاول البعض أن ينال من الأحاديث وقال أحدهم : « أنا يكفينى أن أقول لا إله إلا الله » ، تساءلت : كيف لا يذكر أن محمداً رسول الله ؟ وكيف يمكن أن يؤدى الأذان للصلاة ؟ وكيف يؤدى الصلاة ؟ وكيف يمكن أن يفهم قول الحق :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

وهذا تفويض من الله فى أن يكون لمحمد صلى الله عليه وسلم تشريع .

وكذلك الاجتراءات على الأئمة ، هم يجترئون أولاً على النبى ثم يزحفون على الدين كله . وجاء فيهم قول الحق : « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً » أى يخرجون الصالح بذاته عن صلاحه ليكون فاسداً . الجزاء أن يُقَتَّلوا أو يُصَلَّبُوا ، وهذا التفعيل فى قوله : (أن يقتلوُا أو يصلبُوا) جاء للشدة والتقوية ؛ حتى يقف منهم المجتمع الإيمانى العام موقف القائم على هذا الأمر ، والسلطة الشرعية قامت عن الجميع فى هذا الأمر ، كما يقال : إن النائب العام نائب عن الشعب فى أن يرفع الدعوى ، حتى لا ينتشر التقتيل بين الناس ، دون أن يفقهوا حكمة كل أمر .

« أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من

(١) رواه أحمد والترمذى والحاكم عن على كرم الله وجهه .

الأرض » . وهل « أو » هنا تخييرية ، أو أنّ هنا ـ كما يقال ـ « لف ونشر » ؟ واللف هو الطى . والنشر هو أن تبسط الشيء وتفرقه .

فما اللف ، وما النشر ـ إذن ـ ؟ مثل ذلك ما يقوله الشاعر :

قلبى وجفنى واللسان وخالقى . .

لقد ذُكر مُتعدّد ولكن الأحكام غير مذكورة ، هذا هو اللف ؛ فجمع المبتدءات دون أن يذكر لكل واحد منها خبره ؛ ثم جاء بالأحكام على وفق المحكوم عليه . فأكمل بيت الشعر بقوله :

راضٍ وباكٍ شاكرٌ وغفورُ

ولنقرأ البيت كاملاً :

قـلبـى وجـفـنـى والـلسـان وخـالـقـى
راضٍ وبـاكٍ شـاكـرٌ وغـفـورُ

والحق يقول :

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة القصص)

فقوله : « لتسكنوا فيه » راجع إلى الليل ، وقوله : « ولتبتغوا من فضله » راجع إلى النهار . وهنا جاء باللف ، ثم جاء بالنشر .

والفساد ـ كما نعلم ـ له صُور متعددة ، فالفساد فى الإنسان قد يعنى قتله . أو قتله وأخذ ماله . أو الاستيلاء على ماله دون قتله . أو إثارة الرعب فى نفس الإنسان دون أخذ ماله أو قتله . فكأن كلمة الفساد طوى فيها ألوان الفساد ، نفس تقتل ، أو نفس تقتل مع مال يُسلب ويؤخذ ، أو مال يُؤخذ دون نفس تقتل ، أو تخويف وتفزيع .

ويقول الحق : « أو ينفوا من الأرض »، والنفى معناه الطرد والإبعاد ، والطرد لا يتأتى إلا لثابت مُستقر ، والإبعاد لا يتأتى إلا لمتُمكن . إذن ، فقبل أن يُنفى لا بد

أن يكون له ثبوت وتمكُّن فى موضع ما ، وهو ما نسميه اصطلاحاً السكن ، أو الوطن ، أو المكان الذى يقيم به الإنسان لأنه ثابت فيه . ومعنى ثابت فيه . أى له حركة فى دائرته ، إلا أنه يأوى إلى مكانٍ مُستقر ثابت ، ولذلك سُمى سكناً ؛ أى يسكن فيه من بعد تحركه فى مجالاته المختلفة . ومعنى النفى على هذا هو إخراجه من مسكنه ومن وطنه الذى اتخذه موطناً له وكان مجالاً للإفساد فيه . ولكن إلى أى مكان نُخرج إليه هذا الذى نحكم عليه بالنفى ؟ قد يقول قائل : أنت إن أخرجته من مكان أفسد فيه وذهبت به إلى مكان آخر فقد تشيع فساده !

لا ؛ لأن النفى لا يتيح له ذلك الإفساد ، ذلك أن التوطن الأول يجعل له إلفاً بجغرافية المكان ، وإلفاً بمن يخيفهم ؛ فهو يعرف سلوك جيرانه ويعرف كيف يخيف فلانا وكيف يغتصب بضاعة آخر وهكذا . ولكنه إن خرج إلى مكان غير مستوطن فيه فسوف يحتاج إلى وقت طويل حتى يتعرف إلى جغرافية المكان ومواقع الناس فيه ، ومواطن الضعف فيهم . وعلى ذلك يكون النفى هو منعٌ لإفساد الفاسد .

وحين يقول سبحانه : « أو ينفوا من الأرض » نعرف أن كلمة « الأرض » لها مدلول ونسمى الأرض الآن : الكرة الأرضية . وكانوا قديماً يفهمونها على أنها اليابسة وما فيها من مياه ، وبعد أن عرفنا أن جَوَّ الأرض منها صار جو الأرض جزءا من الأرض . ولذلك قلنا فى المقدسات المكانية : إن كل جو يأخذ التقديس من مكانه ؛ فجو الكعبة كعبة ؛ بدليل أن الذى يصلى فى الدور الثالث من الحرم ؛ ويتجه إلى الكعبة . يصلى متجها إلى جو الكعبة . ومن يستقل طائرة ويرغب فى إقامة الصلاة يتجه إلى جو الكعبة ، وعندما ازدحم الحجيج وصار المسعى لا يتسع لكل الحجيج أقاموا دوراً ثانياً حتى يسعى الناس فيه . إذن فالمسعى ليس هو المكان المحدد فقط ، ولكن جوه أيضا له قدسية ؛ فإن بنينا كذا طابقا فهى تصلح أيضا كمسعى .

إذن فجو الأرض ينطبق عليه ما ينطبق على الأرض . ولذلك كانوا يُحرمون ـ قبل أن يوجد طيارون مسلمون ـ أن يُحَوِّم فى جو الحرم طيار غير مسلم ؛ لأن الطيار غير المسلم مُحرم عليه أن يدخل الكعبة والحرم . ومادام هناك إنسان ممنوع من دخول الكعبة فهو أيضا ممنوع من الطيران فى جَوّ الكعبة .

لأن جَوّ المكان يأخذ قُدسية المكان أو حكمه ؛ فالجَوّ من الأرض ، ونعرف أن الغلاف الجوى يدور مع الأرض . ومن هذا نعرف العطاءات القرآنية من القائل لكلامه وهو سبحانه الخالق لكونه . ومادام القائل للقرآن هو الخالق للكون ، إذن لا يوجد تضارب بين حقيقة كونية وحقيقة قرآنية . وإنما يوجد التضارب من أحد أمرين : إما أن نعتبر الأمر الذى لايزال فى طور النظرية حقيقة فى حين أنها لم تصبح حقيقة بعد ؛ وإما أن نفهم أن هذا حقيقة قرآنية ، على الرغم من أنه ليس كذلك ، فإذا كان الأمر هو حقيقة كونية بحق وحقيقة قرآنية بحق ، فلا تضارب على الإطلاق . ودليل ذلك على سبيل المثال قول الحق سبحانه :

﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْأَرْحَامِ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة لقمان)

ويأتى العلم الحديث بالبحث والتحليل ، ويقول بعض السطحيين :

لا ، إن العلم يعرف ما فى الرّحم من ذكر أو أنثى . ونقول : نحن لا نناقش ذلك ؛ لأنها حقيقة كونية وهى لا تتصادم مع الفهم الصحيح للحقيقة القرآنية ؛ لكننا نسأل : متى يعرف العلماء ذلك ؟ هم لا يعرفون هذا الأمر إلا بعد مُضى مُدة زمنية ، ولكن الحق يعلمه قبل مرور أية مدة زمنية . ثم مَن قال : إن الحق يقصد بـ«ويعلم ما فى الأرحام» ذكراً أو أنثى فحسب؟ وهل لمدلولها وجه واحد؟ لا ، بل له وجوه متعددة فلن يعرف أحد أن ما فى الرحم سيكون من بعد إنسانا طويلاً أو قصيراً ؛ ذكيا أو غبياً ؛ شقياً أو سعيداً ؛ طويل العمر أو قصير العمر ؛ حليماً أو غضوباً . فلماذا نحصر «ما» فى مسألة الذكر والأنثى فقط ؟

إنه هو سبحانه يعلم المستقبل أزلاً قبل أن يعلم أى عالم وقبل أن يحصل العالم على أية عينة . ثم هل تذهب كل حامل إلى الطبيب ليفحص معملياً ما الذى تحمله فى بطنها ؟ طبعاً لا ، ونحن لا نعلم ماذا فى بطنها ولكن الخالق الأعظم يعلم . ثم هل تذهب كل النساء الحوامل فى العالم لطبيب واحد ؟ بالطبع لا ، ولكن الخالق الأعظم يعلم ما فى كل الأرحام .

إذن فالحقيقة القرآنية لم تصطدم بأية حقيقة كونية ، لكن الصدام يحدث عندما

نفهم فيها خطأ أن الحقيقة القرآنية فى قوله الحق : « ويعلم ما فى الأرحام » مقصود به العلم بالذكر والأنثى فقط .

ومثال آخر ، يقول الحق :

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا ﴾

(من الآية ١٩ سورة الحجر)

ويُخطىء البعض الفهم عن الله فيظن أن المقصود بذلك أن الأرض بساط أمام الإنسان . وقد ثبتت للبشر حقيقة كونية هى أن الأرض كروية بالأدلة خلال رحلة ماجلان ثم بالقواعد الخاصة بوضع الأعمدة ؛ وظهور أعالى الأشياء قبل أسافلها وغير ذلك ، ثم صارت فى عصرنا مُشاهدة من الأقمار الصناعية . إذن هذه الحقيقة الكونية لا كلام فيها ، وكان الخطأ هو فهم مدلول الحقيقة القرآنية والفهم الصواب فى مدلول الحقيقة القرآنية الخاصة بقوله تعالى : « والأرض مددناها » ؛ إننا كلما وقفنا فى مكان نجد أرضا ، أى أن الأرض لا نهاية لها وليس لها حافة .

إذن فسبحانه قد مَد الأرض أمام الإنسان بحيث إذا سار الإنسان فى أى اتجاه ؛ يجد أرضاً . ولا يتأتى ذلك إلا إذا كانت الأرض كروية . لهذا كان الخطأ فى فهم مدلول الحقيقة القرآنية ؛ لأن التضارب إنما ينشأ من فهم أنها حقيقة كونية وهى ليست كذلك ، أو من فهم أنها حقيقة قرآنية على نحو خاطىء ، إنهما لا تتعارضان ؛ فالقائل هو الخالق عينه . ولهذا عرفنا متأخراً أن الجو من الأرض وأن الغلاف الجوى يدور مع الأرض ، وكنا نقول : سرنا على الأرض ، لكنه سبحانه قال وهو العليم :

﴿ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ١١ سورة الأنعام)

وهو سبحانه علم أزلاً أن الجو جزء من الأرض . فمهما سار الإنسان على اليابسة ففوقه الغلاف الجوى . إذن فالإنسان إنما يمشى فى الأرض وليس على الأرض . أما إن سار الإنسان فوق الغلاف الجوى فهو يسير فوق الأرض .

ونعود إلى قوله الحق : « أو ينفوا من الأرض » وقد عرفنا أن النفى هو الطرد والإبعاد ، فأى أرض ينفون منها وإلى أى أرض ؟ ولا يكون الطرد إلا لمستقر

ولا الإبعاد إلا لثابت . وحتى في اللغة نعرف ما يسمى النفى والإثبات . وكل ذلك مأخوذ من شيء حِسى ؛ فعندما نأخذ الماء من البئر نُنزل إلى قاع البئر دلواً ، وكل دلو ينزل إلى البئر له « رِشاء » وهو الحبل الذى نُنزل بواسطته الدلو .

إننا ساعة نُخرج الدلو من البئر ، يكون قد أخذ من الماء على قدر سعته وحجمه . فهل لدينا حركة ثابتة نستطيع بها المحافظة على استطراق الماء إلى تمام حافة الدلو ؟ طبعاً هذا أمر غير ممكن ؛ بل نجد قليلا من الماء يتساقط من حواف الدلو ، وهذا الماء المتساقط يُسمى « النَّفِى » ؛ لأننا لا نستطيع استخراج الدلو وهو ملآن لآخره بحركة ثابتة مستقرة بحيث تحافظ على استطراق الماء .

إن الماء ـ كما نعلم ـ له استطراق دقيق إلى الدرجة التى جعلت البشر يصنعون منه ميزاناً للاستواء . ومن « النَّفى » تؤخذ معان كثيرة ، فهناك « النفاية » وهى الشيء الزائد . إذن كيف يكون النفى من الأرض ؟ وهل نأخذ الأرض بمفهومها العام أو بمعناها الخاص ؟ أى الأرض التى حدث فيها قطع الطريق ؟

إن أخذناها بالمعنى الخاص فالنفى يكون لأى أرض أخرى . وإن أخذنا الأرض بالمعنى العام فكيف يكون النفى ؟ ونرى أن الحق سبحانه قد قال فى موضع آخر من القرآن :

﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الإسراء)

هم بلا جدال يسكنون فى الأرض . وجاء هذا القول لمعنى مقصود ، ونعرف أننا لا نذكر السكن إلا ويكون المقصود تحييز مكان فى الأرض ، كأن يقول قائل : « اسكن ميت غمر » أو « اسكن الدقهلية » أو « اسكن طنطا » ، وهذا تحديد لموقع من الأرض للاستقرار ، والمعنى المقصود إذن أن الحق يبلغنا أنه سيقطعهم فى الأرض تقطيعاً بحيث لا يستقرون فى مكان أبدا . وذلك مصداقا لقول الله :

﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ﴾

(من الآية ١٦٨ سورة الأعراف)

فليس لهم وطن خاص . وتمت بَعْثَرَتُهم فى كل الأرض ، وهذا هو الواقع الذى

حدث فى الكون . أوُجِدَ لبنى إسرائيل استقرار فى أى وطن ؟ . لا . وحتى الوطن الذى أقاموه بسبب وعد بلفور لم يترك الحق أمره . بل أعطى وعده للمؤمنين بأن يدخلوا المسجد إذا ما أحسنوا العمل لاسترداده . ومازال اليهود بطبيعتهم شتاتاً فى أنحاء الأرض . ولهم فى كل وطن حىّ خاص بهم . وتحتفظ كل جماعة منهم فى أى بلد بذاتيتهم ولا يذوبون فى غيرهم :

﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وحين يأتى بهم الحق فى الجولة الآخرة سيأتون لفيفاً أى مجتمعين ؛ لأن الأمّة المؤمنة حين يقوّيها الله لتضرب على هؤلاء القوم ضربة لا بد أن يكونوا مُجتمعين . وكأن الله قد أراد أن يكون هذا « الوطن القومى » حتى يتجمعوا فيه وبعد ذلك يرسل الضربة عليهم لأنه جاء بهم لفيفاً ، لذلك لا نحزن لأنه قد صار لهم وطن ، فقد جاء بهم لفيفاً .

ونعود إلى الآية التى نحن بصددها . كيف يكون النفى من الأرض ؟ حين يريد الله تحييز مكان فهو يقول على سبيل المثال :

﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ﴾

(من الآية ٢١ سورة المائدة)

إذن فقد نفى غيرها . وهو يقول أيضاً :

﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ﴾

(من الآية ١١٠ سورة الأعراف)

وكان المقصود بها مصر .

فإذا أخذنا الأرض بالمعنى العام فحكمها حُكم « اسكنوا الأرض » . والنفى هو صورة من صور العقوبات للإفساد ، والإفساد فى الأرض ينقسم إلى أربعة أقسام ؛ قتل ، قتل وأخذ مال ، أخذ مال فقط ، ترويع . وقد زاد رسول الله صلّى الله عليه وسلم شيئاً وفعله فى سيرته ، فقد جاء لنا بأمر جديد فى أمر الإفساد . وكان على

العلماء أن يتنبهوا له ، فأول نفى حصل فى الإسلام كان نفى رسول الله الحَكَم بن أبى العاص من المدينة إلى الطائف ؛ لأن الحكم ـ والعياذ بالله ـ كان يُقلّد مِشْيَة النبىّ باستهزاء ، وكان النبى صلّ الله عليه وسلم إذا مشى تكفأ تكفؤاً كأنما يَتحدَّر من صَبَبٍ . فقد كانت مشية النبى مشية خاصة . وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الحَكَمَ يقلد مِشيته فى استهزاء والتفت النبى ـ ذات مرة ـ فجأة ، فوجد الحكم يقلده فى مِشيته فنفاه من المدينة إلى الطائف ، وظل الحكم فى الطائف طوال حياة رسول الله صلّ الله عليه وسلم . فلما جاءت خلافة أبى بكر الصديق ، ذهب أهل الحَكَم إلى أبى بكر ، فقال :

ـ ما كنت لأحلّ عقدة عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وذهبوا إلى عمر بن الخطاب فلم يوافق . وعندما جاءت خلافة عثمان وكان رضى الله عنه حَيياً وخجولاً فقال : لقد أخذت كلمة من رسول الله صلّ الله عليه وسلم تحمل شبهة الإفراج عنه . ويفرج عنه عثمان بن عفان رضى الله عنه .

وأثناء حياة الحَكَم فى الطائف كان يربى بعض شُويهات وبعض غُنيمات وكان يرعاها عند جبيلات الطائف . وكان لهذه المسألة آثار من بعد ذلك . فأنتم تعلمون أن معاوية رضى الله عنه أنجب يزيد الذى تولّى الخلافة من بعده . وانتقلت الخلافة بعد يزيد لآل مروان بن الحَكَم .

وكان خالد بن يزيد الذى ترك الخلافة لمروان عالماً كبيراً فى الكيمياء وله أخ اسمه عبدالله ، وكان لعبدالله جياد يتسابق بها . وكان لولد من أولاد عبدالملك بن مروان جياد أيضاً ، وجرت جياد عبدالله مع جياد ابن عبدالملك فى مضمار سباق ، فلما جاءت خيل عبدالله لتسبق . . حدث خلاف بين عبدالله وابن عبدالملك ؛ فنهر ابن عبدالملك عبدالله ، فذهب عبدالله واشتكى لأخيه خالد . وهنا ذهب خالد لعبدالملك بن مروان ، وقال له :

ـ لقد حدث من ابنك لأخى كذا وكذا . وكان عبدالملك فصيحاً فى العرب وما جربوا عليه لحناً أبداً . وربّى أولاده على ألا يلحنوا فى اللغة . وكان له ولد اسمه الوليد غير قادر على استيعاب النطق الصحيح للغة دون لحن .

فلما دخل خالد إلى عبدالملك أراد أن يجد فيه شيئاً يعيبه به ، قال عبدالملك لخالد : أتكلمنى فى عبدالله وقد دخل علىّ آنفاً فلم يخل لسانه من اللحن ؟

وقال خالد ـ معرضا بالوليد ـ : والله يا عبدالملك لقد أعجبتنى فصاحة الوليد . فقال عبدالملك : إن يكن الوليد يلحن فإن أخاه سليمان لا يلحن . فقال خالد : وإن كان عبدالله يلحن فإن أخاه خالداً لا يلحن .

فقال عبدالملك : اسكت يا هذا فلست فى العير ولا فى النفير .

وأظن أن قصة العير والنفير معروفة . فالعير هى التى كانت مع أبى سفيان وعليها البضائع من الشام وتعرض لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نجا بها أبو سفيان . والنفير هم الجماعة التى استنفرها أبو سفيان من مكة لأنه خاف من المسلمين وكانت زعامتهم لعتبة . فالعير كانت زعامته لأبى سفيان والنفير كانت زعامته لعتبة بن ربيعة ، وكان عتبة هو جدّ خالد لأمه ، وأبو سفيان هو جدّه لأبيه . فقال خالد : ومن أولى بالعير وبالنفير منى ، جدّى أبو سفيان صاحب العير ، وجدى عُتّبة صاحب النفير ، ولكن لو قلت غنيمات وشويهات وجبيلات وذكرت الطائف ورحم الله عثمان لكان أولى . وأسكته .

إذن . فالنفى كان أول عقاب أنزله الرسول صلىّ الله عليه وسلم ، فهل ما فعله « الحَكَم » يُعتبر فساداً ؟ . ونقول : إن كل فساد إنما يترتب على الفساد الذى يمس رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان الحَكَم يستهزىء بمِشية رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد يقول مُشرّع ما : إن السجن يقوم مقام النفى ونقول : لا ، إن السجن الآن فيه الكثير من الرفاهية . فقد كان السجن قديماً أكثر قسوة . والهدف من السجن الإبعاد لتخفيف شرور المُفسِد وإن كان لا يبعده عن مستقره ووطنه . وذلك أمر متروك للحاكم يفعله كيف يشاء وخاصة إذا لم يكن هناك أرض إسلامية متعددة . بحيث يستطيع أن ينفيه من أرض إلى أرض أخرى .

ويتبع الحق هذا بقوله : « ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم »

وهذا القول لاحق لعقاب محدد للمفسدين فى الأرض المحاربين لله ورسوله وهو : « أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض » . وهذه العقوبات خزى لهم .

إن كلمة « خزى » ترد فى اللغة بمعنيين ؛ مرة بمعنى الفضيحة ، « خَزِىَ ، يَخْزَى ، خِزياً » ، أى انفضح ، ومرة ثانية هى « خَزِى ، يَخْزَى ، خَزاية وَخَزًى » بمعنى استحى . والمعنيان يلتقيان ، فمادام قد افتضح أمر عبدٍ فهو يستحى مما فعل . وتلك الأفعال خزى ، كالذى قطع طريقاً على أناس آمنين ، ونقول لمثل صاحب هذا الفعل : إن قوّتك ليست ذاتية بل قوّة اختلاسية ؛ فلو كانت قُوّتك ذاتية لاستطعت أن تتأبّى لحظة أن يأخذوك ليقتلوك أو يصلبوك أو يقطعوا يدك ورجلك . فقد اجترأت على العُزّل الذين ليست لهم استطاعة الدفاع عن أنفسهم ، وفى هذا خزى لك . خصوصاً وأنت ترى من كانوا يخافونك وأنت تنال العقاب . وخزيك الآن هو مقدمة لعذاب آخر فى الآخرة ، فسوف تنال عذاباً عظيماً .

« ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » . وكل جزاء فى الدنيا إنما يأتى على قدر طاقات البشر فى العقاب ، ولكن ماذا إذا وُكِلُوا إلى طاقة الطاقات ؟ . ها هى ذى عدالة الحق تتجلّى ، فهو سبحانه وتعالى يفسح المجال للمُسرفين على أنفسهم ؛ أولاً بالتوبة ؛ لأن الله الرّحيم بعباده لو أخذ كل إنسان بجريرة فعلها أو عاقب كل صاحب ذنب بذنبه لاستشرى فى الأرض فساد كل من ارتكب ذنباً لأنه يئس من رحمة الله فتشتد ضراوته وقسوته . وسبحانه فتح باب التوبة لكل من أسرف على نفسه . وإن لم توجد التوبة لصار المُسرف فاقِدا . وهب أن واحداً من الذين فعلوا ذلك استيقظ ضميره ، فإن تاب قبل أن تقدروا عليه فهناك حُكْم ، أما إن تاب بعد أن يقدر عليه المجتمع فلا توبة له .

ويقول الحق :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾